بسم الله الرحمن الرحيم

٤٠ - سورة غافر

وسميت (المؤمن) قال المهايميّ : سميت به لاشتمالها على كلمات مؤمن آل فرعون ، المتضمنة دلائل النبوة ورفع الشبه عنها ، والمواعظ والنصائح وسلامته عن أعدائه . وعما أخذوا به ، وهى من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة غافر وسورة الطَّول . وهى مكية وآيها ثمانون وخمس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ)

« حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » الكلام فى مفتتح هذه السورة وتاليه ، كالذى سلف فى (ألم السجدة) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ)

[٤] (مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ)

« غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ » أى المن والفضل « لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ » أى المرجع والجزاء « مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى ما يخاصم فى حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها ، إلا الذين جحدوا توحيده . قال الزمخشرىّ : سجل على المجادلين فى آيات الله بالكفر . والمراد الجدال بالباطل ، من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله . وقد دل على ذلك قوله[1] (وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ » فأما الجدال فيها ، لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقارحة أهل العلم فى استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله . وقوله ﷺ[2] (جدال فى القرآن كفر) وإيراده منكرا ، تميز

(١) [٤٠ / غافر / ٥] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٤٩٩ (طبعة المعارف) .

منه بين جدال وجدال . انتهى « فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ » أى للتجارات ، وتمتعهم بالتجوال والترداد ، فمآلهم إلى الزوال والنفاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ » أى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم « مِنۢ بَعْدِهِمْ » أى من بعد سماع أخبارهم ومشاهدة آثارهم « وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ » أى ليتمكنوا منه ، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل . من (الأخذ) بمعنى الأسر . والأخيذ الأسير « وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ » أى قابلوا حجج الرسل بالباطل من جدالهم « لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ » أى ليزيلوا به الأمر الثابت بالحجة الصحيحة . لكنه لا يندحض وإن كثرت الشبه . لما أنه الثابت فى نفسه المتقرر بذاته « فَأَخَذْتُهُمْ » أى بالعذاب الدنيوىّ المعروف أخباره ، المشهود آثاره « فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى فى هذه الدار . فيعتبر به عقاب تلك الدار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ)

« وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ » قال[1] ابن جرير : أى وكما حق على الأمم التى كذبت رسلها ، التى قصصت عليك ، يا محمد ، قصصها ، وحل بها عقابى . كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، الذين يجادلون فى آيات الله . لأنهم أصحاب النار . ثم نوّه بالمؤمنين ، وبما أعدّ لهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ)

[٨] (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[٩] (وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ، وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ، وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

[١٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ)

«ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ» أى من الملائكة. وقدسبق فى تفسير آية[1] (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) فى الأعراف ، كلام فى حملة العرش ، فراجعه «وَمَنْ حَوْلَهُۥ» يعنى الملائكة المقرّبين « يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ » أى: ويقرّون بأنه لا إله لهم سواه. ويشهدون بذلك لايستكبرون عن عبادته . وفائدة التصريح بإيمانهم، مع جلائه، هو إظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله ، والإشعار بعلة دعائهم للمؤمنين. حسبما ينطق به قوله تعالى « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » فإن المشاركة فى الإيمان أقوى المناسبات وأتمها ، وأدعى الدواعى إلى النصح والشفقة . وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم ، من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم ، إيذان بكمال اعتنائهم به ، وإشعار بوقوعه عند الله تعالى

(١) [٧/ الأعراف/ ٥٤] .

فى موقع القبول « رَبَّنَا » أى يقولون ربنا « وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً » أى شملت رحمتك وأحاط بالكل علمك « فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ » أى صراطك المستقيم بمتابعة نبيّك فى الأقوال والأعمال والأحوال « وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى عمل صالحاً منهم ، ليتم سرورهم بهم « إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ » أى : عقوبتها وجزاءها « وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » أى: لبغضه الشديد لكم، أعظم من بغض بعضكم لبعض. وتبرؤ كل من الآخر ولعنه حين تعذبون كما قال تعالى[1] (يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا) أو أعظم من مقتكم أنفسكم وذواتكم. فقد يمقتون أنفسهم حين تظهر لهم هيآتها المظلمة وصفاتها المؤلمة ، وسواد الوجه الموحش وقبح المنظر المنفّر « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » أى تدعون على ألسنة الرسل عليهم السلام ، إلى الإيمان به سبحانه ، فتكفرون كبراً وعتوًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)

« قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ » أى أنشأتنا أمواتا مرتين. وأحييتنا فى النشأتين كما قال تعالى[2] (وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) قال قتادة : كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم ، فأحياهم الله فى الدنيا. ثم أماتهم الموتة التى لابد منها. ثم أحياهم للبعث يوم القيامة . فهما حياتان وموتتان « فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا » أى : فأقررنا

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٨] .

بما عملنا من الذنوب فى الدنيا . وذلك عند وقوع العقاب المرتب عليها ، وامتناع المحيص عنه « فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ » أى : فهل إلى خروجنا من النار ، من سبيل، لنرجع إلى الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل. قال الزمخشرىّ: وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط. وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا . ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك . وهو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ، وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ، فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ)

[١٣] (هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ)

« ذَٰلِكُم » أى ذلكم الذى أنتم فيه من العذاب، وأن لا سبيل إلى خروج قط « بِأَنَّهُۥ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ » أى بسبب إنكاركم أن الألوهة له خالصة ، وقولكم[1] (أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا) وإيمانكم بالشرك « فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ » أى فالقضاء له وحده لا للغير . فلا سبيل إلى النجاة لعلوّه وكبريائه . فلا يمكن أحدا ردّ حكمه وعقابه « هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ » أى من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها « وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا » أى مطرا. وإفراده بالذكر من بين الآيات، لعظم نفعه، وتسبب حياة كل شىء عنه « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ » أى. وما يتعظ بآياته تعالى ، إلا من يرجع إليه بالتوبة والإنابة .

---

(١) [٣٨ / ص / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ)

[١٥] (رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ)

« فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى فاعبدوه مخلصين له الدين، عن شوب الشرك « وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ » أى غاظهم ذلك « رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ » أى رفيع درجات عرشه كقوله[1] (ذِى ٱلْمَعَارِجِ) وهى مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش . وهى دليل على عزته وملكوته . أو هو عبارة عن رفعة شأنه وعلوّ سلطانه وكمالاته ، غير المتناهية «ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ» أى الوحى والعلم اللدنّى الذى تحيا به القلوب الميتة «مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ » أى أهل عنايته الأزلية ، واختصاصه للرسالة والنبوة « لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ» أى يوم القيامة الكبرى ، الذى يتلاقى فيه العبد بربه ليحاسبه على أعماله ، أو العباد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ، لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ)

[١٧] (ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ)

« يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ » أى من قبورهم . أو ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو بناء «لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ» أى من أعمالهم وأعيانهم وأحوالهم. وقوله « لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ » ينادى به الحق سبحانه ، عند فناء الكل . أو وقت التلاق والبروز . فيجيب هو

(١) [٧٠ / المعارج / ٣] .

وحده « لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ » أى المتفرد بالملك « ٱلْقَهَّارِ » أى الذى قهر بالغلبة كل ما سواه « ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » أى بإيصال ما يستحق كل منهم إليه ، من تبعات سيئاته وثمرات حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ، مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

« وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ » أى الواقعة القريبة « إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ » أى من أهواله ترتفع القلوب عن مقارّها ، فتصير لدى الحلوق « كَٰظِمِينَ » أى ممتلئين غمّا ، بما أفرطوا من الظلم « مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ » أى قريب يهتمّ لشأنهم ، فيخفف عنهم غمومهم « وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » أى من يشفع فى تخفيفها عنهم . إذ لا تقبل شفاعة فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ)

[٢٠] (وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ، وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)

[٢١] (أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ)

[٢٢] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ، إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)

[٢٣] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ)

[٢٤] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ)

[٢٥] (فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ)

« يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ » أى نظراتها الخائنة. وهى الممتدة إلى مالا يحلّ « وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ » أى تكنّه من الضمائر والأسرار « وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ » أى بالعدل « وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ » أى لأنهم لا يقدرون على شىء « إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ » يعنى حصونهم وقصورهم وعددهم « فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ » أى بآيات نبوته « مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ » أى : قالوا أعيدوا عليهم القتل ، كالذى كان أوّلا. واستبقوا نساءهم للخدمة « وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ » أى: وما مكرهم فى دفع ما أراد الله من ظهور دينه ، إلا فى ضياع . إذ هو كالغثاء الذى يقذفه تيار الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ، إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ »

أى ماأنتم عليه من عبادة الأصنام « أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ » أى فساد مملكتى. إذ يتفق الكل على متابعته وإجراء أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ)

«وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ» أى التجأت إليه وتوكلت عليه ، فهو ناصر دينه ومعزّ أهله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ، وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

« وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ » أى من فرعون وملئه «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ » أى من عذاب الدنيا إن تعرضتم له. وقد أشار الزمخشرىّ إلى مافى طىّ هذا القول من اللطائف والأسرار، بماملخصه: إن هذا المؤمن استدرجهم فى الإيمان باستشهاده على صدق موسى ، بإحضاره عليه السلام من عندمَنْ تنسب إليه الربوبية، ببيناتٍ عدةلا بينة واحدة. وأتى بها معرّفة. معناه البينات العظيمة التى شهدتموها وعرفتموها على ذلك ، ليلين بذلك جماحهم ، ويكسر من سورتهم . ثم أخذهم

بالاحتجاج بطريق التقسيم، فقال : لايخلو من أن يكون صادقا أو كاذبا. فإن يك كاذبا فضرر كذبه عائد عليه . أو صادقا فيصبكم ، إن تعرضتم له، بعض الذى يعدكم. وإنما ذكر (بعض) فى تقدير أنه نبي صادق ، والنبيّ صادق فى جميع ما يَعِدُ به ، لأنه سلك معهم طريق المناصحة لهم والمداراة. فجاء بما هوأقرب إلى تسليمهم، وأدخل فى تصديقهم له، ليسمعوامنه ولايردوا عليه صحته . وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق فى جميع ما يَعِدُ . ولكنه أردفه (يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ) ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام ، ليريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأثنى عليه ، فضلا عن أن يكون متعصبا له . وتقديم (الكاذب) على (الصادق) من هذا القبيل .

قال الناصر : ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا ، قوله تعالى[1] (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ) فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف ، دونها ، لرفع التهمة وإبعاد الظن ، وإدلالا بأن الحق معه ولايضره التأخير لهذه الفائدة. وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة، مافى قصة يوسف مع أخيه . إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . انتهى . « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ » قال الزمخشرىّ : يحتمل أنه إن كان مسرفا كذابا، خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر، فتتخلصون منه. وأنه لوكان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة، ولما عضده بالبينات.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ، قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ)

(١) [١٢ / يوسف / ٢٦و٢٧].

« يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى عالين وقاهرين، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم بأنفسكم ، ولا تعرضونا لعذابه تعالى « فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ » أى ما أشير عليكم إلا ما أستصوبه من قتله. إذ البأس السماوىّ من أجل قتله ، أمر متوهم . فاتباعه غلط « وَمَآ أَهْدِيكُمْ » أى بإراءة رأى قتله « إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ » وهو دفع تبدل دينكم وإظهار الفساد فى الأرض ، بإظهار أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ)

[٣١] (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ)

« وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم » أى من قتله « مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ » أى الطوائف الهالكة بالتكذيب « مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ » أى جزائهم من الغرق « وَعَادٍ » أى من الريح العقيم « وَثَمُودَ » أى من الصيحة « وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ » أى من الأمم المكذبة ، مما يدل على أن الهلاك سنة مستمرة لأهل التكذيب ، إذ لم يكن لهم ذنب آخر يوجبه « وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ » أى فلا يعاقبهم بغير ذنب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ)

« وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ » يعنى يوم القيامة ، أى عذابه . سمى بذلك لما جاء فى حديث[1] (إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ،

(١) لم أعثر على هذا الحديث .

فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا) أى : من هول فزع النفخة . وقال قتادة : ينادى كل قوم بأعمالهم . ينادى أهلُ الجنة أهلَ الجنة وأهلُ النار أهلَ النار . وقيل لمناداة أهل الجنة أهل النار[1] (أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ) ومناداة أهل النار أهل الجنة[2] (أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ) . واختار البغوىّ وغيره ؛ أنه سُمِّى لجموع ذلك . أى لوقوع الكل فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ)

« يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ » أى ذاهبين فرارًا من الفزع الأكبر[3] (كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ) « مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى من عذابه، من مانع، لتقرر الحجة عليكم « وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ » أى بزيغه عن صراط ربه « فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ » أى من حجة ولا مرشد إلى النجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ، حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ)

« وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ » أى من قبل مجىء موسى بالحجج البينة

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٠] .
(٣) [٧٥ / القيامة / ١١و١٢] .

والبراهين النيّرة ، على وجوب عبادته تعالى وحده . كقوله[1] (ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ) « فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ » أى مع ظهور استقامته الكافية فى الدلالة على صحة ما جاءكم به ، فلم يزل يقررها « حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ » أى مات « قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا » أى يقرر حججه . فقطعتم من عند أنفسكم ، بعدم إرسال الله الرسول ، مع الشك فى إرسال من أعطاه البينات ، من فرط ضلالكم « كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ » أى فى التشكيك عند ظهور البراهين القطعية « مُّرْتَابٌ » أى شاكّ مع ظهور لوائح اليقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)

« ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ » أى برهان « أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » أى بطر للحق ، لا يقبل الحجة . جبار فى المجادلة . ألدّ فيصدر عنه أمثال ما ذكر ، من الإسراف والارتياب والمجادلة فى الباطل لطمس بصيرته ، فلا يكاد يظهر له الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ)

[٣٧] (أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ، وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا » أى قصرًا عالياً ظاهراً لكل أحد

(١) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

« لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ » أى طرقها « فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ » أى لأسأله عن إرساله ، أو لأقف على كنهه « وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا » قال ابن جرير[1] : أى لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدّعى ، من أن له فى السماء ربًّا أرسله إلينا « وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ » أى سبيل الرشاد لما طبع على قلبه ، من كبره وتجبّره وإسرافه وارتيابه « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ » أى خسار وهلاك ، لذهاب نفقته على الصرح سدى ، وعدم نيله ، مما أراده من الاطلاع ، شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ)

« وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ » أى طريق الصواب الذى ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه . ثم أشار إلى تفصيل ما أجمله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ)

« يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ » أى تمتع يسير ، لسرعة زوالها « وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ » التى يوصل إليها سبيلى « هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ » أى الاستقرار والخلود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير تقدير وموازنة بالعمل . بل أضعافاً مضاعفة . قال الزمخشرىّ : قوله (بِغَيْرِ حِسَابٍ) واقع فى مقابلة (إِلَّا مِثْلَهَا) يعنى أن جزاء السيئة له حساب وتقدير، لئلا يزيد على الاستحقاق. فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب ، بل ما شئت من الزيادة والكثرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَيَا قَوْمِ مَالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِيَ إِلَى النَّارِ)

[٤٢] (تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)

« وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِيَ إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ » أى بوجوده علم، إذ لا وجود له « وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ » أى الغالب الذى يقهر من عصاه « الْغَفَّارِ » أى الذى يستر ظلمات نفوس من أطاعه، بأنواره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

[٤٤] (فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ » أى الذى تدعونى إلى عبادته ، ليس له دعوة فى الدنيا لدفع الشدائد والأمراض ونحوها ،

ولا فى الآخرة لدفع أهوالها ، على ماقاله المهايمىّ . أو لا دعوة له فى الدارين لعدمه بنفسه ، واستحالة وجوده فيهما ، على ما قاله القاشانىّ. وقال الشهاب : عدم الدعوة عبارةعن جماديتها وأنها غير مستحقة لذلك . وسياق (لَا جَرَمَ) عند البصريين أن يكدن (لَا) ردًّا لما دعاه إليه قومه و (جَرَمَ) بمعنى كسب . أى وكسب دعاؤهم إليه بطلان دعوته . أى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته . ويجوز أن يكون (لَاجَرَمَ) نظير (لابد) من الجرم وهو القطع . فكما أنك تقول (لابد لك أن تفعل) والبد من التبديد الذى هو التفريق ، ومعناه لا مفارقة لك من فعل كذا ، فكذلك (لَا جَرَمَ) معناه لاانقطاع لبطلان دعوة الأصنام . بل هى باطلة أبدا . هذا ما يستفاد من (الكشاف) .

وفى (الصحاح) : قال الفرّاء : (لَا جَرَمَ) كلمة كانت فى الأصل بمنزلة (لامحالة، ولابد) فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم، وصارت بمنزلة (حقا) فلذلك يجاب عنها باللام . ألا تراهم يقولون (لاجرم لآتينك) وقد حقق الكلام فيها ابن هشام فى (المغنى) فى بحث . والجلال فى (همع الهوامع) أثناء بحث إن والقسم، فانظرها . «وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ » أى فى الضلالة والطغيان وسفك الدماء « هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ » أى من النصح عند معاينة الأهوال ومايحيق بكم «وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ » أى وأسلم أمرى إليه وأجعله له وأتوكل عليه، فإنه الكافى من توكل عليه « إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ » أى فيعلم المطيع منهم والعاصى، ومن يستحق المثوبة والعقوبة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ، وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ)

« فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ » أى فرفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون ، بإيمانه وتصديق رسوله موسى، مكروهَ ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه، من العذاب والبلاء، ففجاه منه « وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ » أى بفرعون وقومه « سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ » يعنى الغرق أو النار . وعلى الأول ، فقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ)

[٤٧] (وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ)

[٤٨] (قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ)

« ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » جملة مستأنفة مبينة لكيفية نزول العذاب بهم. على أن (ٱلنَّارُ) مبتدأ وجملة (يُعْرَضُونَ) خبره . وعلى الثانى ، فالنار خبر لمحذوف وهو خبر العذاب السيئ . أو هى بدل من (سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ) . والمراد عرض أرواحهم عليها دائما. واكتفى بالطرفين المحيطين ـ الغدوّ والعشىّ ـ عن الجميع. وبه يستدل على عذاب القبر والبرزخ.

وقاناه الله تعالى ، بمنه .

قال السيوطىّ : وفى (العجائب) للكرمانىّ: فى هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر. لأن المعطوف غير المعطوف عليه . يعنى قوله تعالى « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ » أى هذا العرض مادامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة يقال لهم « أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ » وهو عذاب جهنم . لأنه جزاء شدة كفرهم « وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ » أى يتخاصمون فيها ، الأتباع والمتبوعون « فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » أى أتباعاً كالمكرهين « فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ » أى نحن وأنتم . فكيف نغنى عنكم ؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا « إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ » أى بأن أدخل أهل الجنة الجنةَ ، وأهل النار النارَ ، ولا معقب لحكمه. أو بأن قدّر عذاباً لكل منا لا يدفع عنه ، ولا يتحمله عنه غيره . قال الشهاب : وهذا أنسب بما قبله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ » أى لما أيسوا من التخفيف عند المحاجّة « ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ » أى يدفع عنا يوماً من أيام العذاب ، أو ألمَ يوم وشدّته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ، قَالُوا۟ بَلَىٰ ، قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ، وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ)

« قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ » أى المتكاثرة على صدقهم ، المنذرة بهذه الشدة « قَالُوا۟ بَلَىٰ » أى جاءوا بها وأخبروا مع البينات « قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ » أى إن كان ينفعكم ، وهيهات « وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ » أى فى ضياع لا يجاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ)

« إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ » أى لننصرهم فى الدارين . أما فى الدنيا ، فبإهلاك عدوّهم واستئصاله عاجلا ، أو بإظفارهم بعدوّهم وإظهارهم عليه ، وجعل الدولة لهم والعاقبة لأتباعهم . وأما فى الآخرة ، فبالنعيم الأبدىّ والحبور السرمدىّ . و (ٱلْأَشْهَٰدُ) جمع شاهد ، وهم من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظلما . أو جمع شهيد ، كأشراف وشريف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ)

«يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ» قال ابن جرير[1]: ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم، لأنهم لا يعتذرون إن اعتذروا إلا بباطل. وذلك أن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا ، وتابع عليهم الحجج فيها ، فلا حجة لهم فى الآخرة إلا الاعتصام بالكذب ، بأن يقولوا[1] (وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ولذا كانت لهم اللعنة، وهى البعد من رحمة الله وشر ما فى الدار الآخرة من العذاب الأليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ » . أى ما يهتدى به . فكذب به فرعون وقومه كما كذبت قريش « وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ » أى وتركنا عليهم بعده من ذلك التوراة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ)

«هُدًى» أى بيانا لأمر دينهم وما ألزمناهم من شرائعها « وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى لذوى الحجى والعقول منهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .
(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ)

« فَٱصْبِرْ » أى إذا تلوت ما قصصناه عليك للناس ، فاصبر على أذى المشركين واصدع بما تؤمر « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى بنصرك على من خالف ، لا خلف له وهو منجزه . واذكر نبأ موسى وفرعون « وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ » أى سله غفرانه وعفوه « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ » كقوله تعالى[1] « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ، فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ » أى يدفعون الحق بالباطل ، ويردّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة ، بلا برهان ولا حجة من الله « إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ » أى : إلا تكبّر عن الحق وتعظم عن التفكر ، وغمط لمن جاءهم به ، حسداً منهم على الفضل الذى آتاك الله ، والكرامة التى أكرمك بها من النبوّة « مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ » قال ابن جرير[2] : أى الذى حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه . لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وليس بالأمر الذى يدرك بالأمانىّ . وقد قيل : إن معناه إن فى صدورهم إلا عظمة ، ما هم ببالغى تلك العظمة ، لأن الله مذلّهم « فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ » قال ابن جرير[3] :

(١) [٥٠ / ق / ٣٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٦ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٧٧ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أى فاستجر بالله يامحمد ، من شر هؤلاء الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض فى قلبك منه شىء « إِنَّهُ و هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » أى لما يقولون وبما يعملون، فسيجازيهم.

تنبيه :

قال كعب وأبو العالية : نزلت هذه الآية فى اليهود . وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض . فأمر ﷺ أن يستعيذ بالله من فتنته. قال ابن كثير: وهذا قول غريب ، وفيه تعسف بعيد. وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم . ولم يذكره ابن جرير، على ولعه بالغريب والضعيف .

وفى (الإكليل) : ليس فى القرآن الإشارة إلى الدجال إلا فى هذه الآية ، أى على صحة هذه الرواية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ » أى : لإنشائهما وابتداعهما من غير شىء ، أعظم من خلق البشر « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الجهل عليهم . ولذا يجعلون إعادة الشىء أعظم من خلقه عن عدم ، مع أنه أهون وأيسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ، قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ » أى مايستوى الأعمى الذى لايبصر شيئاً ، وهو

مثل الكافر الذى لا يتأمّل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ماشاء، ويؤمن به ـ والبصير الذى يرى بعينيه ما شخص لها ويبصره . وذلك مثل للمؤمن الذى يرى بعينيه حجج الله فيتفكر فيها ويتعظ ، ويعلم ما دلت من توحيد صانعه وعظيم سلطانه « وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى ولا يستوى أيضاً المؤمنون بالله ورسوله ، المطيعون لربهم « وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ » وهو الكافر بربه ، العاصى له ، المخالف أمره « قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ » أى حججه تعالى . فيعتبرون ويتعظون . أى لو تذكّروا آياته واعتبروا بها ، لعرفوا خطأ ما هم مقيمون عليه ، من إنكار البعث ، ومن قبح الشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

« إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا » أى فأيقنوا بمجيئها وأنكم مبعوثون ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يصدقون بمجيئها . يعنى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

« وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أى اعبدونى أثبكم . قال الزمخشرىّ : والدعاء بمعنى العبادة ، كثير فى القرآن . ويدلّ عليه قوله تعالى « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » أى صاغرين أذلّاء . قال الشهاب : إطلاق الدعاء على العبادة مجاز ، لتضمن العبادة له . لأنه عبادة خاصة أريد به المطلق . وجعل الإثابة لترتبها عليها استجابة ، مجازا أو مشاكلة . وإنما أوّل به لأن ما بعده يدل عليه . والمقام يناسبه

الأمر بالعبادة . وقد جوّز أن يراد بالدعاء والاستجابة ظاهرهما . ويراد بالعبادة الدعاء مجازا ، لأنه باب من العبادة عظيم ، وفرد من أفرادها فخيم . قال الشهاب : ولو قيل لا حاجة إلى التجوّز ، لأن الإضافة المراد بها العهد هنا ، فيفيد ما ذكر من غير تجوّز ـ لكان أحسن . انتهى .

وعلى الوجه الثانى ـ وهو أن المراد بالدعاء السؤال ـ اقتصر كثير من المفسرين . قال المهايمىّ (أَسْتَجِبْ لَكُمْ) لأن الدعاء من العبد غاية فى التذلل لربه ، وهو محبوب لربه . فإذا أتى العبد بمحبوب الرب عظمه بالاستجابة . وإذا لم يستجب له فى الدنيا عوّضه فى الآخرة . ولحبه التذلل أمر العباد بالعبادة ، فإن استكبروا كان لهم غاية الإذلال . اهـ . وقال القاشانىّ : الآية فى دعاء الحال . لأن الدعاء باللسان مع عدم العلم بأن المدعوّ به خير له أم لا ، دعاء المحجوبين . وأما الدعاء الذى لا تتخلف عنه الاستجابة ، فهو دعاء الحال بأن يهيئ العبد استعداده لقبول مايطلبه ، ولا تتخلف الاستجابة عن هذا الدعاء . كمن طلب المغفرة ، فتاب إلى الله ، وأناب بالزهد والطاعة . انتهى .

وتقدم فى آية[1] (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) فوائد تناسب هذا المقام ، فلتراجع . ثم أشار تعالى إلى أنه كيف لا يلزم العباد عبادته ، وقد أنعم عليهم بما يقتضى شكره بالعبادة ، مما أجلاه منافع الليل والنهار ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

[٦٢] (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)

«اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ» أى الله الذى لا تصلح الألوهية إلا له ، ولا تنبغى عبادة غيره ، هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه ، فتستردوا بالراحة فيه ،

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

ما فاتكم من القوى فى العمل بالنهار « وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى أن يبصر فيه أو به لتتحركوا لتحصيل الأكساب الدينية والدنيوية . فقد تفضل الله عليكم بهما وبما فيهما « إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ » أى ليشكروه بعبادته « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ » أى عن طاعته إلى إثبات الشريك وعبادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ)

« كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ » أى من الأمم المتقدمة الهالكة. أى فسلكتم أنتم معشر قريش مسلكهم ، وركبتم محجتهم فى الضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا » أى تستقرون عليها وتسكنون فوقها « وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً » أى مبنية مرفوعة فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم وقوام دنياكم. وقد فسّر (البناء) بالقبة المضروبة. لأن العرب تسمّى المضارب (أبنية) ، فهو تشبيه بليغ، وهو إشارة إلى كريّتها. قاله الشهاب « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ » أى يجعل كل عضو فى مكان يليق به ، ليتم الانتفاع بها ، فتستدلوا بذلك على كمال حكمته « وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ » أى لذيذات المطاعم والمشارب لتشكروه وحده « ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى الذى لا تصلح الربوبية إلا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« هُوَ ٱلْحَىُّ » أى الذى لا يموت ، الدائم الحياة ، وكل شىء سواه فمنقطع الحيـاة غير دائمها « لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى مفردين له الطاعة ، لا تشركوا فى عبادته شيئاً « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى الثناء والشكر لله ، مالك جميع أجناس الخلق ، لا للأوثان التى لا تملك شيئاً ، ولا تقدر على ضر ولا نفع .

قال ابن جرير[1] : وكان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال (لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ) أن يتبع ذلك (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) تأولا منهم هـذه الآية ، بأنها أمر من الله بقيل ذلك . ثم أسنده عن ابن عباس وابن جبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من الآلهة والأوثان « لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى » أى الآيات الواضحات من عنده ، على وجوب وحدته وتفرده بالعبادة « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى أخضع له بالطاعة دون غيره من الأشياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ، وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ » أى مما يرجع إليه . أو خلق أباكم آدم منه « ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ » أى يبقيكم لتبلغوا أشدكم ، فتتكامل قواكم « ثُمَّ لِتَكُونُواْ » أى إذا تناهى شبابكم وتمام خلقكم « شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ » أى من قبل أن يصير شيخا « وَلِتَبْلُغُوٓاْ » أى ونفعل ذلك لتبلغوا « أَجَلًا مُّسَمًّى » أى ميقاتا محدودا لحياتكم ، وهو وقت الموت . أو لجزائكم وهو يوم القيامة « وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى ولكى تعقلوا حجج الله عليكم بذلك ، وتتدبروا آياته ، فتعرفوا بها أنه لا إله غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ، فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)

« هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » أى يكوّنه من غير كلفة ولا معاناة . وقد تقدم فى (البقرة) الكلام على هذه الآية مطوّلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ)

[٧٠] (ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[٧١] (إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ)

[٧٢] (فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ » أى عن الرشد إلى الغىّ

« ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ » أى بكتاب الله ، وهو القرآن « وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ » أى الماء الحارّ . قال المهايمىّ : لدفعهم برْد اليقين من دلائل الكتاب والسنة « ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ » أى يحرقون . قال المهايمىّ : لإحراقهم الأدلة العقلية والنقلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ)

[٧٤] (مِن دُونِ ٱللَّهِ ، قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ)

« ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا » أى غابوا فلم نعرف مكانهم . وهذا قبل أن يقرنوا معهم . أو ضلالهم استعارة لعدم نفعها لهما . فحضورهم كالعدم « بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا » أى ما كنا مشركين . وإنما كذبوا لحيرتهم واضطرابهم . أو بمعنى : تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً . قال القاشانىّ : لاطلاعهم على أن ما عبدوه وضيعوا أعمارهم فى عبادته ، ليس بشىء ، فضلا عن إغنائه عنهم شيئاً « كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ » أى أهل الكفر به ، عنه وعن رحمته ، فلا يخفف عنهم العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ)

« ذَٰلِكُم » أى العذاب « بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ » أى بسبب فرحكم فى الدنيا ، بغير ما أذن الله لكم به ، من الباطل والمعاصى ، وبمرحكم فيها . و (المرح) هو الأشر والبطر والخيلاء . وبين (الفرح) و (المرح) تجنيس بديع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ)

« ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ » أى منزل المتعظمين عن الإيمان والتوحيد ، جهنم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

« فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى فاصبر على جدال هؤلاء المتكبرين فى آيات الله ، وعلى تكذيبهم ، فإن وعد الله إياك بالظفر عليهم ، حق ثابت « فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ » أى من العذاب والنقمة « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى قبل أن يحل بهم ما يحل « فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » أى فنحكم بينهم بالحق ، وهو الخلود فى النار ، لمناسبة نفوسهم الكدرة الظلمانية ، البعيدة عن الحق ، واستحكام ملكات رذائلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ » أى لتقف على ما وفينا لهم من وعد النصر إياهم فى الدنيا « وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » أى لمكان الطول . مع أن فى نبئهم ما يشاكل نبأ المذكورين . والشىء يعتبر بشكله « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن

يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى بأمره . وهذا رد لمقترحهم وتعنتهم فى طلب ماقص عنهم من آية[1] (وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا) الآية ، بأن الإتيان بذلك مردّه مشيئة الله تعالى وإرادته به . وقد شاء أن تكون الآية العظمى تنزيله ، الأكبر من كل آية ، والأعظم من كل خارقة . فهو خير الآيات وأحسنها وأقوم المعجزات وأمتنها . كما قال تعالى[2] (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ) وقال تعالى[3] (أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ) « فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ » أى عند عدم الإيمان بالآية المقترحة ، بعد إتيانها « قُضِىَ بِٱلْحَقِّ » أى من المؤاخذة ، بعد تقرير الحجة المقترحة لهم « وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ » أى فى دعواهم الشريك ، وافترائهم الكذب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٨٠] (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

[٨١] (وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ)

[٨٢] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ)

« ٱللَّهُ » أى الذى لاتصلح الألوهية إلا له « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ » أى مسخرة

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] .
(٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .
(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٥١] .

« لِتَرْكَبُواْ مِنهَا وَمِنهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ » من الجلود والأوبار والأصواف « وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ » أى بالمسافرة عليها « وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ » أى فى طريق البحر « تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ » أى دلائله الدالة على فرط رحمته وكمال قدرته « فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ » أى من الحصون والقصور والمبانى والعدد والعدد « فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » أى مما لا يدفع به العذاب الأرضىّ ولا السماوىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

[٨٤] (فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ)

[٨٥] (فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ، سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ)

« فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ » أى الخالى عن نور الهداية والوحى ، ورضوا بها عن قبول هداية الرسل ومعارفهم . واستهزأوا برسلهم لاستصغارهم بما جاءوا به ، فى جنب ماعندهم من العلم الوهمىّ « وَحَاقَ بِهِم » أى من عذاب الله « مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى جزاؤه « فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ » أى مضت فى خلقه ، أن لا يقبل توبة ولا إيمانا فى تلك الحال « وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ » أى وهلك ، عند مجىء بأسه تعالى ، الكافرون بربهم الجاحدون توحيد خالقهم . ففاتتهم سعادة الأبد ، والعيش الرغد . نسأله تعالى المعافاة من غضبه وعقابه ، والموافاة مع زمرة أحبابه . آمين .